الفصل السابع والثلاثون

ذكر ينابيع مدينة القاهرة

فى القلعة الداخلية واحد وعشرون ينبوعا يأتيها الماء من النيل المبارك عبر ٣٦٠ قنطرة من خيرات السلطان الغورى، وتصل المياه إلى أسفل القلعة فترفعها السواقى ليل نهار، وثمة خزان عظيم للماء له قباب يمتلئ هذا الخزان بالماء وفى الصباح يأتى سقاؤو القلعة وعددهم ٥٠٠ لحمل المياه فى قربهم، فيسقوا البيوت التى فى القلعة، وتباع أربع قرب بيارة، وأحد هذه الينابيع لها قبة عظيمة أسفل «الضرب خانه» بالقلعة الداخلية، ولها مواسير فى غلظ ذراعين وماؤها يأتى من السواقى المجاورة لقصر الباشا.

وثمة ينبوع آخر بالقرب من الشيخ سارية إلا أن ماءها من بئر يوسف لذلك فهو أميل إلى الملوحة وثمة سواق أخرى لينابيع وأحواض وشادروانات الشيخ سارية وماؤها أميل إلى الملوحة.

وفى شمال قلعة الانكشارية بالقرب من جامع «قان باى سلطان» نبع على صخرة قائمة تأتى مياهها من بئر كأنها حفرت فى جهنم.

وخارج القلعة فى مقر أتباع الباشا ينبوع ذات قبة عظيمة أسفل قاعة ديوان السلطان قلاوون ذات الأربعين عمودا وهى ينبوع لها ماسورتان فى غلظ الذراع وماؤها عذب زلال ويجلب السَّقاؤن الماء منها لأتباع الباشا، ومياهها كذلك من المياه التى تأتى عبر قناطر الغورى.

وينبوع آخر فى ميدان قصر الباشا تحت النخيل وأشجار الزيتون، ولها قبة عظيمة وماسورتان وماؤها صاف، ويأتيها الماء كذلك من قناطر الغورى.

وينبوع آخر بالقرب من مخبز رئيس الخبازين وله ست مواسير تتصل بصنابير يتوضأ منها المصلون وجميع أتباع الباشا يروون ظمأهم منها إنه شراب طهور، وماؤها يأتى كذلك من سواقى الغورى.

وفى مطبخ الباشا ينبوع كذلك ذات ماسورتين وماؤها صاف تشرب منه الجياد وهو منسوب كذلك للغورى.

وتتوسط حجرات العزب ينبوع لها قبة عالية تهب الحياة، ويصعد إلى قبتها بسلم من ست درجات، إنها عين الحياة، ولها ماسورتان متجاورتان فى غلظ الذراع، وهى كذلك منسوبة إلى السلطان الغورى.

وفى داخل باب العزب كذلك ينبوع يجرى فى اسطبل طائفة عسكر حجاج المسلمين، وتشرب كل الخيول من هذا الماء العذب وهذا النبع كذلك من خيرات السلطان الغورى. وليس فى القاهرة ينابيع سوى هذه وما فى القلعة الداخلية.

وإذا ما سئل عما إذا كانت هذه الينابيع تكفى أهل القاهرة وهم بحر من البشر فتذكر ما جاء فى فرمان السلطان مراد الرابع عن الآبار والينابيع والسواقى بيد أن سواقى البساتين والحدائق قليلة وهى خاصة بها وحدها.

بيان عام بما فى القاهرة من آبار وأحواض وأسواق

فى عهد السلطان (مراد الرابع) وعندما كان بيرم باشا واليا على مصر- بناء على الفرمان السلطانى - أحصى جميع مبرات ودكاكين الأسواق السلطانية، وما تحتويها، وعرض ذلك على السلطان (مراد)، وجاء فى هذا الإحصاء أن فى القاهرة ٢٧٤٠٠٠ بئر ! ذلك لأن ما سلف ذكره من قصور السلف والوزراء والوكلاء والأعيان والأعراف يضم خمسة أو ستة آبار، أو على الأقل بئر واحدة لكل قصر من هذه القصور.

فضلا عن آلاف الجوامع والمساجد والخانات والمبرات والمدارس لكل منها بئر أو أكثر وعلى رأس كل طريق، وداخل بعض العطفات أحواض طويلة تسقى منها دواب المسافرين من خيل، وجمال، وثيران، وحمر. ولكل حوض منها سواق ذات سقف منقوش ذى زخارف، يقوم على أعمدة من حجر، وتستخرج هذه السواقى الماء من الآبار، ويتدفق الماء من ثلاثة مواضع على هيئة رؤوس أسود أو تنانين أو شياطين، فتملأ الأحواض وتشرب منها كل الدواب.

وفى مدينة القاهرة ٩٢٠٠ ساقية ذات حوض، وكل منها من خيرات سلطان، أو وزير، أو عين من الأعيان.

فى القاهرة ٨٩٠٠ طـريق من طرق رئيسية ودروب، وأسواق سلـطانية، و١٧ حارة منهـا ليس لهـــا أبـواب كالطريـق الرئيسى، وفى كل ليلـة يعس (الصوباشى) فى ٦٠٠ أو أكثر من رجاله مع (الديودار) للحفاظ على الأمن والحراسة.

وفى الصبـاح يقـــوم زبالو الحمامات بكنس الطريق العـام، ثم يقوم كل صاحب دار أو دكان بـرش الماء فـى الطريـق من الآبـار سالفـة الذكـر، وبذلك تـنظـف الأسواق السلطانية، وطرق المسلمين، والطرق الرئيـسية خاصها وعامها ويطيب هواؤها، إلى حد لا تبقى فيها ذرة من تراب وبذلك يجد جميع أهل السوق الراحة. هذا هو النظام المرعى فى الكثرة الكاثرة من الطرق الرئيـسية العظيمة.

وفى بعض العطفات كذلك، يرش سقاؤو ديارها الماء فى الطرق فيلطف هواؤها.

وفـى القاهـرة بعـد (كسر النيل) يجرى مـاء النيل المبارك داخل القاهرة وخارجها من أربعـيـن جـهـة، ويحمل السقـاءون المـياه مـن الخلجان، ويباع حمـل جمل من الماء بـ (باره)، وتـبـاع قربـــة الماء بـ (منقرين). ويشرب أهل القاهرة الماء الصـافى فترتد إليهم الروح.

ثمة خليـج أسفل إحدى سواقى الغورى هو خـليج (جسر المنجان)، ويســميه العوام (خليج قطع النيل)، وفى سفح جبل الجوشـى بئر تسمى (بئر أفنای)، وأول من حفرها همـا (هـاروت وماروت) بـعـد هبـوطهـمـا إلى الأرض، وقـــد عرفـا فيه عـلم الرصد وكانا يرقبان الكواكب، وعلموا أهل القاهرة علم النجوم والسحرة حتى أصبح كل أهلها من السحرة.

وبئر (أفنای) تلك موجودة إلى الآن إلا أنها خربة لعدم وجود ماء فيها. وكان الحاكم بأمر الله قد أمر بتطهيرها فأصبحت كما كانت فى عهد هاروت.

***